بسم الله الرحمن الرحيم

أَهَمِّيَّةُ تَحْدِيدِ الْهَدَفِ وَوُضُوحِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

أَخِي طَالِبَ الْعِلْمِ: اعْلَمْ - وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ تَحْدِيدَ الْهَدَفِ وَوُضُوحَهُ فِي ذِهْنِكَ يُسَهِّلُ عَلَيْكَ رُؤْيَةَ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَمِنْ ثَمَّ سُلُوكَهُ، بَيْنَمَا إِذَا كَانَ الْهَدَفُ غَيْرَ وَاضِحٍ فَإِنَّكَ تَبْقَى مُشَوَّشًا، غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى تَحْقِيقِ هَدَفِكَ؛ إِذْ أَنَّ النَّجَاحَ تَحْقِيقُ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ الْمَرْءُ. فَمَنْ لَمْ يُحَدِّدْ هَدَفَهُ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهِ؟!

إِنَّ تَحْدِيدَ الْهَدَفِ وَوُضُوحَهُ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ النَّجَاحِ، وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَذُمُّونَ الرَّجُلَ الَّذِي يُمْضِي حَيَاتَهُ سَبَهْلَلًا بِلَا هَدَفٍ وَلَا غَايَةٍ.

أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الزُّهْدِ الْكَبِيرِ»، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنِّي لَأَبْغَضُ الرَّجُلَ أَرَاهُ فَارِغًا، لَا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ، وَلَا فِي أَمْرِ آخِرَتِهِ [1].

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي: «صِفَةِ الصَّفْوَةِ»، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضَّجَرَ، فَإِنَّهُمَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، إِنَّكَ إِنْ كَسِلْتَ لَمْ

(1) «الزُّهْدُ الْكَبِيرُ» (775).

تُؤَدِّ حَقًّا، وَإِنْ ضَجَرْتَ لَمْ تَصْبِرْ عَلَى حَقٍّ [2].

لَقَدْ كَانَ لِتَحْدِيدِ الْهَدَفِ وَوُضُوحِهِ دَوْرًا كَبِيرًا فِي تَحَمُّلِ السَّلَفِ الْمَشَقَّةَ الْعَظِيمَةَ فِي سَبِيلِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَعَدَمِ الِانْشِغَالِ بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ حَالُهُمْ مَعَ الدُّنْيَا كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ [3].

وَالْأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، يَطُولُ الْمَقَامُ بِذِكْرِهَا، وَسَنَذْكُرُ أَمْثِلَةً عَلَى ذَلِكَ.

الْأَوَّلُ: أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: آللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، **إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ**، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ

(2) «صِفَةُ الصَّفْوَةِ» (1/ 198).

(3) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)» (6416).

مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو القَاسِمِ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الْحَقْ» وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الْحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي» قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءَ أَمَرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، قَالَ: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ» قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: «أَبَا هِرٍّ»

قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «اقْعُدْ فَاشْرَبْ». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: «اشْرَبْ». فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ». حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «فَأَرِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ [4].

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَابَنِي جَهْدٌ شَدِيدٌ، فَلَقِيتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَاسْتَقْرَأْتُهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَدَخَلَ دَارَهُ وَفَتَحَهَا عَلَيَّ، فَمَشَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، **فَخَرَرْتُ لِوَجْهِي مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ**، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَأَقَامَنِي، وَعَرَفَ الَّذِي بِي، فَانْطَلَقَ بِي إِلَى رَحْلِهِ، فَأَمَرَ لِي بِعُسٍّ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «عُدْ يَا أَبَا هِرٍّ»، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ: «عُدْ»، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ، حَتَّى اسْتَوَى بَطْنِي فَصَارَ كَالْقِدْحِ، قَالَ: فَلَقِيتُ عُمَرَ، وَذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِي، وَقُلْتُ لَهُ: فَوَلَّى اللهُ ذَلِكَ مَنْ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ يَا عُمَرُ، وَاللهِ لَقَدِ اسْتَقْرَأْتُكَ الْآيَةَ، وَلَأَنَا أَقْرَأُ لَهَا مِنْكَ، قَالَ عُمَرُ: وَاللهِ لَأَنْ أَكُونَ أَدْخَلْتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ حُمْرِ النَّعَمِ [5].

---

(4) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ «بَابٌ: كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَتَخَلِّيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا» (6452).

(5) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ «بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُم﴾» (5375).

هَذَا حَالُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَمَنَ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ:

- يَعْتَمِدُ بِكَبِدِهِ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ.

- وَيَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ.

- وَيَخِرُّ لِوَجْهِهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ.

- ثُمَّ آلَ أَمْرُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَا يَأْتِي:

- أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمِيرُ الْبَحْرَيْنِ:

عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ [6].

- أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْجِعٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْحَدِيثِ.

فَهَذَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ - كَاتِبُ الْوَحْيِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُرْسِلُ مَنْ يَسْأَلُهُ فِي الدِّينِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: «عَلَيْكَ بِأَبِي هُرَيْرَةَ» [7].

- أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَمَخَّطُ فِي الْكَتَّانِ.

---

(6) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (20659).

(7) أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (1228)، وَالْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ» (6158).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ، فَتَمَخَّطَ، فَقَالَ: «بَخْ بَخْ، أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكَتَّانِ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلَّا الْجُوعُ» (8).

قَالَ الْمُبَارَكْفُورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: (وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ). أَيْ: مَصْبُوغَانِ بِالْمِشْقِ، وَهُوَ بِكَسْرِ الْمِيمِ الْغُرَّةِ.

(مِنْ كَتَّانٍ). قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الْكَتَّانُ مَعْرُوفٌ، ثِيَابُهُ مُعْتَدِلَةٌ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْيُبُوسَةِ، وَلَا يَلْزَقُ بِالْبَدَنِ، وَيَقِلُّ قَمْلُهُ.

(فَمَخَطَ فِي أَحَدِهَا). أَيْ: انْتَثَرَ فِيهِ.

(ثُمَّ قَالَ: بَخْ بَخْ). كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ الرِّضَاءِ وَالْإِعْجَابِ بِالشَّيْءِ، أَوِ الْفَخْرِ وَالْمَدْحِ (9).

---

(8) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ «بَابُ مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ» (7324)، وَالتِّرْمِذِيُّ «بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعِيشَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ» (2290).

(9) «تُحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ» (6/ 154).

الثَّانِي: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ، فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ فِيهِمْ، قَالَ: «فَتَرَكْتُ ذَاكَ، وَأَقْبَلْتُ أَسْأَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ، فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ، **فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ**، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِكَ؟ **هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ**، قَالَ: فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ الْأَنْصَارِيُّ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلِي يَسْأَلُونِي، فَيَقُولُ: **هَذَا الْفَتَى كَانَ أَعْقَلَ مِنِّي**[10].

وَكَمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلْعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ ... وَمَنْ يَخْطُبِ الْحَسْنَاءَ يَصْبِرْ عَلَى الْبَذْلِ

وَمَنْ لَا يُذِلَّ النَّفْسَ فِي طَلَبِ الْعُلَا ... يَسِيرًا يَعِشْ دَهْرًا طَوِيلًا أَخَا ذُلِّ

---

(10) «الْمُسْتَدْرَكُ» (363).

الثَّالِثُ: زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ الْخُرَسَانِيُّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ثلَاثٍ وَمِئَتَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ).

قَالَ عَنْهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: صَاحِبُ حَدِيْثٍ كَيِّسٌ، قَدْ رَحَلَ إِلَى مِصْرَ وَخُرَسَانَ فِي الْحَدِيْثِ، **مَا كَانَ أَصبرَهُ عَلَى الْفَقْرِ!** كَتَبْتُ عَنْهُ بِالْكُوْفَةِ، وَهَا هُنَا - يَعْنِي: بَغْدَادَ - [11].

عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَرْبٍ الطَّائِيِّ قَالَ: **أَتَيْنَا زَيْدَ بْنَ الْحُبَابِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبٌ يَخْرُجُ فِيْهِ إِلَيْنَا، فَجَعَلَ الْبَابَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ حَاجِزًا، وَحَدَّثَنَا مِنْ وَرَائِهِ** رَحِمَهُ اللَّهُ [12].

الرَّابِعُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِئَتَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ).

أَخْرَجَ الذَّهَبِيُّ فِي «سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ»، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ **أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَهَنَ نَعْلَهُ عِنْدَ خَبَّازٍ بِالْيَمَنِ، وَأَكْرَى نَفْسَهُ مِنْ جَمَّالِينَ عِنْدَ خُرُوْجِهِ**، وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ دَرَاهِمَ صَالِحَةً، فَلَمْ يَقْبَلْهَا.

وَمَعَ هَذِهِ الْفَاقَةِ الشَّدِيدَةِ إِلَّا أَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ عَزِيزَ النَّفْسِ. أَخْرَجَ الذَّهَبِيُّ فِي «سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ»، عَنِ الْخَلَّالِ: حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ، سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَذَكَرَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ نَفَقَتَهُ نَفَدَتْ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَأَقَمْتُهُ

---

(11) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (9/ 394).

(12) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (9/ 395).

خَلْفَ الْبَابِ، وَمَا مَعَنَا أَحَدٌ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ عِنْدَنَا الدَّنَانِيْرُ، إِذَا بِعْنَا الْغَلَّةَ، أَشْغَلْنَاهَا فِي شَيْءٍ، وَقَدْ وَجَدْتُ عِنْدَ النِّسَاءِ عَشْرَةَ دَنَانِيْرَ، فَخُذْهَا، وَأَرْجُو أَنْ لَا تُنْفِقَهَا حَتَّى يَتَهَيَّأَ شَيْءٌ.

فَقَالَ لِي: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ قَبِلْتُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا قَبِلْتُ مِنْكَ [13].

الْخَامِسُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَمِئَتَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ).

عَنْ عُمَرَ بْنِ حَفْصٍ الْأَشْقَرِ قَالَ: كُنَّا مَعَ الْبُخَارِيِّ بِالْبَصْرَةِ نَكْتُبُ، فَفَقَدْنَاهُ أَيَّامًا، ثُمَّ وَجَدْنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُرْيَانٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعْنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكَسَوْنَاهُ [14].

السَّادِسُ: أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْجَوْزِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ رَحِمَهُ اللهُ).

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: لَقَدْ كُنْتُ فِي حَلَاوَةِ طَلَبِي الْعِلْمَ أَلْقَى مِنَ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ عِنْدِي أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، لِأَجْلِ مَا أَطْلُبُ وَأَرْجُو، كُنْتُ فِي زَمَانِ الصِّبَا آخُذُ مَعِي أَرْغِفَةً يَابِسَةً، فَأَخْرُجُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَأَقْعُدُ عَلَى نَهْرِ عِيسَى، فَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَكْلِهَا إِلَّا عِنْدَ الْمَاءِ، فَكُلَّمَا أَكَلْتُ لُقْمَةً، شَرِبْتُ عَلَيْهَا، وَعَيْنُ هِمَّتِي لَا تَرَى إِلَّا

(13) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (11/ 193).

(14) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (12/ 448).

لَذَّةَ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، فَأَثْمَرَتْ ذَلِكَ عِنْدِي أَنِّي عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سَمَاعِي لِحَدِيثِ سِيَرِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالِهِ وَآدَابِهِ، وَأَحْوَالِ أَصْحَابِهِ وَتَابِعِيهِمْ [15].

لَقَدْ كَانَ حَالُ الْقَوْمِ كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: الْعِلْمُ طَعَامُ الْقَلْبِ وَشَرَابُهُ وَدَوَاؤُهُ، وَحَيَاتُهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا فَقَدَ الْقَلْبُ الْعِلْمَ فَهُوَ مَيِّتٌ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، كَمَا أَنَّ السَّكْرَانَ الَّذِي قَدْ زَالَ عَقْلُهُ، وَالْخَائِفَ الَّذِي قَدِ انْتَهَى خَوْفُهُ إِلَى غَايَتِهِ، وَالْمُحِبَّ وَالْمُفَكِّرَ، قَدْ يَبْطُلُ إِحْسَاسُهُمْ بِأَلَمِ الْجِرَاحَاتِ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَإِذَا صَحَوْا وَعَادُوا إِلَى حَالِ الِاعْتِدَالِ أَدْرَكُوا آلَامَهَا [16].

بَلْ قَدْ تَدَاوَى الْقَوْمُ بِطَلَبِ الْعِلْمِ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ»: حَدَّثَنِي شَيْخُنَا - يَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَالَ: ابْتَدَأَنِي مَرَضٌ، فَقَالَ لِي الطَّبِيبُ: إِنَّ مُطَالَعَتَكَ وَكَلَامَكَ فِي الْعِلْمِ يَزِيدُ الْمَرَضَ، فَقُلْتُ لَهُ: لَا أَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَا أُحَاكِمُكَ إِلَى عِلْمِكَ! أَلَيْسَتِ النَّفْسُ إِذَا فَرِحَتْ وَسُرَّتْ قَوِيَتِ الطَّبِيعَةُ، فَدَفَعَتِ الْمَرَضَ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَقُلْتُ لَهُ: فَإِنَّ نَفْسِي تُسَرُّ بِالْعِلْمِ، فَتَقْوَى بِهِ الطَّبِيعَةُ، فَأَجِدُ رَاحَةً، فَقَالَ: هَذَا خَارِجٌ عَنْ عِلَاجِنَا، أَوْ كَمَا قَالَ [17].

---

(15) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (ص: 248).

(16) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (1/ 344، 345).

(17) «رَوْضَةُ الْمُحِبِّينَ» (ص: 19).

مَسْأَلَةٌ: هَلِ الْعِلْمُ غَايَةٌ أَمْ وَسِيلَةٌ؟

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: فَإِنْ قِيلَ: فَالْعِلْمُ إِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْعَمَلِ وَمُرَادٌ لَهُ، وَالْعَمَلُ هُوَ الْغَايَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْغَايَةَ أَشْرَفُ مِنَ الْوَسِيلَةِ، فَكَيْفَ تُفَضَّلُ الْوَسَائِلُ عَلَى غَايَاتِهَا؟

قِيلَ: كُلٌّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: مِنْهُ مَا يَكُونُ وَسِيلَةً، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ غَايَةً.

فَلَيْسَ الْعِلْمُ كُلُّهُ وَسِيلَةً مُرَادَةً لِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ مَطْلُوبٌ لِنَفْسِهِ مُرَادٌ لِذَاتِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطَّلَاقُ]، فَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَنَزَّلَ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمَ عِبَادُهُ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَهَذَا الْعِلْمُ هُوَ غَايَةُ الْخَلْقِ الْمَطْلُوبَةُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّدٌ: 19]، فَالْعِلْمُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَطْلُوبٌ لِذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهُمَا أَمْرَانِ مَطْلُوبَانِ لِأَنْفُسِهِمَا: أَنْ يُعْرَفَ

الرَّبُّ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَأَنْ يُعْبَدَ بِمُوجَبِهَا وَمُقْتَضَاهَا، فَكَمَا أَنَّ عِبَادَتَهُ مَطْلُوبَةٌ مُرَادَةٌ لِذَاتِهَا، فَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِهِ وَمَعْرِفَتُهُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعِلْمَ مِنْ أَفْضَلِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ؛ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِلْغَايَةِ وَالْوَسِيلَةِ.

وَقَوْلُكُمْ: «إِنَّ لِلْعَمَلِ غَايَةً»، إِمَّا أَنْ تُرِيدُوا بِهِ الْعَمَلَ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ عَمَلُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، أَوِ الْعَمَلَ الْمُخْتَصَّ بِالْجَوَارِحِ فَقَطْ.

فَإِنْ أُرِيدَ الْأَوَّلُ، فَهُوَ حَقٌّ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ غَايَةٌ مَطْلُوبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الثَّانِي- وَهُوَ عَمَلُ الْجَوَارِحِ فَقَطْ -، فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ فَإِنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ مَقْصُودَةٌ وَمُرَادَةٌ لِذَاتِهَا، بَلْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ وَسِيلَةٌ مُرَادَةٌ لِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ وَتَوَابِعَهَا هُوَ لِلْقَلْبِ أَصْلًا، وَلِلْجَوَارِحِ تَبَعًا، وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ الْمَقْصُودُ بِهَا أَوَّلًا صَلَاحُ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتُهُ وَعُبُودِيَّتُهُ لِرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ، وَجُعِلَتْ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ تَابِعَةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ مُرَادَةً لَهُ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا مِنْهَا يُرَادُ لِأَجْلِ الْمَصْلَحَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَيْهِ، فَمِنْ أَجَلِّهَا: صَلَاحُ الْقَلْبِ وَزَكَاؤُهُ وَطَهَارَتُهُ وَاسْتِقَامَتُهُ.

فَعُلِمَ أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنْهَا غَايَةٌ وَمِنْهَا وَسِيلَةٌ، وَأَنَّ الْعِلْمَ كَذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَالْعِلْمُ الَّذِي هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْعَمَلِ فَقَطْ إِذَا تَجَرَّدَ عَنِ الْعَمَلِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ صَاحِبُهُ؛ فَالْعَمَلُ أَشْرَفُ مِنْهُ.

وَأَمَّا الْعِلْمُ الْمَقْصُودُ الَّذِي تَنْشَأُ ثَمَرَتُهُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَهَذَا لَا يُقَالُ: إِنَّ الْعَمَلَ الْمُجَرَّدَ أَشْرَفُ مِنْهُ.

فَكَيْفَ يَكُونُ مُجَرَّدُ الْعِبَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ أَفْضَلَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَآفَاتِ النُّفُوسِ، وَالطُّرُقِ الَّتِي تُفْسِدُ الْأَعْمَالَ، وَتَمْنَعُ وُصُولَهَا مِنَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ، وَالْمَسَافَاتِ الَّتِي بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الْقَلْبِ وَالرَّبِّ تَعَالَى، وَبِمَ تُقْطَعُ تِلْكَ الْمَسَافَاتُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْإِيمَانِ، وَمَا يُقَوِّيهِ وَمَا يُضْعِفُهُ؟!

فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ مُجَرَّدَ التَّعَبُّدِ الظَّاهِرِ بِالْجَوَارِحِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ؟! بَلْ مَنْ قَامَ بِالْأَمْرَيْنِ فَهُوَ أَكْمَلُ، وَإِذَا كَانَ فِي أَحَدِهِمَا فَضْلٌ فَفَضْلُ هَذَا الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، فَإِذَا كَانَ فِي الْعَبْدِ فَضْلَةٌ عَنِ الْوَاجِبِ كَانَ صَرْفُهَا إِلَى الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلَ مِنْ صَرْفِهَا إِلَى مُجَرَّدِ الْعِبَادَةِ.

فَهَذَا فَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ [18].

هَذِهِ نَمَاذِجُ يَسِيرَةٌ مِنَ الْمَشَاقِّ الَّتِي وَقَعَتْ لِلسَّلَفِ فِي أَثْنَاءِ طَلَبِهِمْ لِلْعِلْمِ،

---

(18) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» (1/ 511 - 513).

صَبَّرَهُمْ عَلَيْهَا وُضُوحُ الْهَدَفِ لَدَيْهِمْ فِي طَلَبِهِ، وَسَوْفَ نَسْتَعْرِضُ فِي الْمَبْحَثِ الْقَادِمِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَهَمَّ الْعَوَائِقِ فِي طَرِيقِ طَالِبِ الْعِلْمِ؛ لِيَحْذَرَهَا طُلَّابُ الْعِلْمِ.

وَنَسْأَلُ اللهَ الْعِلْمَ النَّافِعَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ.

كَتَبَهُ

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُوسَى

حَفِظَهُ اللهُ

5/ 7/ 1442هـ